

متى تعود للعربية أولويتها اللغوية في حياتنا المعاصرة؟

أ.د. ياسر الملاح

(١) مقدمة:

إذا كانت المعادلة التي تذهب إلى أن قوة السلطان وقوة اللغة متلازمتان صحيحة، وأغلب الظن أنها كذلك، فإن من غير المؤمل في حياتنا التي نحياها هذه الأيام وجود لغة عربية قوية كما يطمح إلى هذا كثير من الغيورين على هذه اللغة، ومنهم المفكرون وعلماء اللغة، وذلك لأسباب موضوعية كثيرة سنتناولها بالدرس والتحليل في هذا البحث. ومعنى قوة اللغة في الحياة الاجتماعية هي احترام الفرد لهذه اللغة، والحرص على التعبير بها في الخطاب والكتابة، وتشجيعه على زرع هذه المفاهيم في نفوس الأبناء والتلاميذ حتى يصدروا عنها في مستقبل الأيام، لأن اللغة إذا كانت قوية في نفسك فإنها تكون قوية في حياتها، وتقوى وتحترم من غيرك، فإذا كان هذا واقعا محسوسا أخذت الحياة اللغوية تنمو وتزدهر في المجتمع كما تنمو دورة الحياة كلها في المجتمعات.

واجبات تجاه أمتها وبيئتها وحضارتها ولغتها، والمهمنة على مجتمعاتنا في هذا الزمان الذي نحياها، يجب أن نستبدل بها شخصية قوية تعي ما يدور حولها وتتعد عن العيشة المدمرة، ولا بد من أن تترك هذه الشخصية الجديدة الواعدة أن اللغة العربية هي واسطة عقدها الحضاري. أما أن نبت فينا أجيال تستمتع بالتقاط فتات الآخرين من اللغات والأخلاق والعادات ليُقَال عنا: متحضرون، فهذا، والله، هو البله والخور الذي لا نرضاه لأبنائنا بتاتا، فيه ضعفت أمتنا، وتكاد تسقط في الهاوية، مما أصيبت به من ضعف واستعباد. لقد أن أوان النهضة والرقى للمجتمع العربي الذي كان رائدا للبشرية في يوم من الأيام، وكانت لغتنا لهذا موضع استقطاب وجذب للناس، وكان الشبان، من الحضارات الأخرى، يتباهون بمعرفة العربية، والكتابة بها، كما كان الأمر في الأندلس وغيرها من البلدان، وأقبلت شعوب كاملة على التعرب، فاتخذت العربية لسانا لها، وكتبت به الكتب ودونت الدواوين، لما وجدته في

وعمق الفهم، وشارة الرقي الذي يمثله ابن جني، وهو بدوره يمثل المجتمع العربي الإسلامي الذي انبثق عنه. ولا عجب في أن نجد عالما فرنسيا مثل فندريس يقول عن هذه الظاهرة، أي ظاهرة اللغة وقوتها: "...اليد واللغة فيهما تنحصر البشرية..." (فندريس، اللغة، ص ١) إذا فالحرص على لغة قوية في المجتمع ضرورة، وإن من يقصر في دعم هذه الفكرة إنما يبخل على نفسه وعلى أهله، والشاعر العربي زهير بن أبي سلمى يقول:

على قومه يُستغن عنه ويُذمم
(الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص ١٩٥)

إذا كان هذا الفهم سائدا في الجاهلية فما بالتنا نبخل به على أنفسنا هذه الأيام، ثم نجد من بيننا من لا يستقيم تفكيره ليدرك أهمية اللغة القوية في المجتمع لإنتاج أجيال قوية تحفظ لنا وجودنا على وجه البسيطة. إن الشخصية المسطحة التي تجهل ما يجب عليها من

وإن من يدقق في الحياة العربية المعاصرة لا يجد المجتمعات الحاضرة لهذه المفاهيم بحيث يتوقع وجود حياة لغوية عربية قوية سواء أكان هذا في البيت أم كان في المعاهد العلمية والمؤسسات الخدمية والإنتاجية. وإن الحديث في هذا الموضوع بدهي إذا وجدت مشكلة تمس هذه البديهية الإنسانية، لأن أي مجتمع يحترم نفسه، ويريد الخير والرقى لأبنائه، لا بد أن يحرص على وجود لغة قوية فيه لما لهذه الأداة من قدرة هائلة في بناء شخصية الفرد بناء ممتازا، ولما لها من أثر في تحقيق التواصل والتفاهم بين أفراد المجتمع، ولهذا كان أبسط تعريف لهذه الأداة قول بعضهم: "اللغة نظام صوتي رمزي اصطلاحى للتفاهم" (ياسر الملاح، المقدمة في علم اللغة، ص ٢٠)، وابن جني عندما عرف اللغة قال: "...أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" (ابن جني، الخصائص، ٢٢/١). ولو أخذنا نشرح هذا النص لطلال بنا الأمر، لما له من دلالة على سمو التفكير،

هؤلاء الباحثون، وربما زاد الطين بلة بعد هذه السنوات التي نشر فيها البحث. ولا يحتاج الأمر إلي رصد أو جمع معلومات، لتأكيد هذه الحقيقة، بل إننا إذا عشنا واقع البيوت والأسر سنجد حمى العربية فيها مستباحا تماما، ولا يوجد أي غيرة عليه، ولا أي دعوة أو توجيه للعناية به، وافرض أن العناية بالغة حدثت في بيت أو اثنين، فإن هذه العناية تتبدد في الشارع أو في المدرسة، وإذا ذهبنا إلى واقع المعاهد، أي المدارس والكليات والجامعات، فإن الأمر أسوأ بكثير إلى درجة وجود جيل جديد لا يرى في تعلم العربية، أو تعليمها، أي فائدة، بل إنهم يرون فيه مضيعة للوقت، ويعتقدون بأن تعلم اللغات الأجنبية أهم بكثير من تعلم العربية وتعليمها، وكذلك الأمر في الحياة الاجتماعية والمؤسسات الخدمية والإنتاجية، كالمشايخ والمصانع والشركات والمصارف. ولعل أكبر ما يفعج المرء في هذه المؤسسات أن من المؤهلات الضرورية للمتقدم إلى وظيفة في هذه المجالات إقتان لغة أجنبية، من غير أدنى التفات إلى لغته العربية؟

وسنرصد في ما يأتي الواقع اللغوي في أبرز المحاضن الأساسية للتنمية اللغوية في حياة من يكتسب اللغة العربية من الشباب وغير الشباب، لنستكشف مدى حرصها ومدى قدرتها على إيجاد حياة لغوية عربية مستقيمة في هذه المناخات، ومدى ما تركه من آثار إيجابية أو سلبية على المتلقي.

٣) المحضن البيتي:

إن في واقع البيت العربي غير قليل من الانحراف والتخبط والتسيب والهلهلة لسببين بسيطين هما: نتاج البيت العربي

ياسين، خصائص معلم اللغة العربية الفعال: دراسة مقارنة، ٢٠١٢، ص ١٦٨) فهذه الحقيقة التي يعلن عنها هؤلاء الباحثون تكاد تكون مروعة وصادمة، لأنها تعبر عن واقع يزعم أنه عربي، ويزعم أنه حريص على العربية، بدليل أن ما ينفق ويرصد من ميزانيات لتعليم العربية في المدارس والجامعات يصل إلى الملايين من الدنانير، ومن غير الدنانير من العملات الأخرى، غير أن النتائج التي تصل إليها هذه الجهود والميزانيات الضخمة على عكس المأمول تماما، فإذا كان المأمول تحقق القوة في لغة التلميذ بحيث يحب لغته، ويحرص على التعبير بها نطقا وكتابة، فإن النتائج المرئية، بعد البحث والتدقيق، تدني المستوى اللغوي عند أبنائنا في لغتهم التي يعتزون بها ويفخرون، لتحقيق المواطنة الصحيحة، وكأننا نزرع العنب الحلو لنحصد الشوك المر، ويا لها من فاجعة لو أن أحدا من الزراع حصل له في حقله ما يحصل لنا في الحقل اللغوي. فهذه حقيقة ملموسة ليست من صناعة الخيال والأوهام، ولكنها نتائج علمية توصل إليها الباحثون الجادون، فإذا كان هذا البحث قد أجراه الدارسون قبل عقد من الزمن، على سبيل المثال، فهل تغير الحال في هذه الأيام التي نحياها؟ وهل بنيت الاستعدادات والخطط للوقوف في وجه هذا الخطر الداهم للفتا؟ إنني أكاد أصل، بعد هذا، ولأنني من المعنيين بهذا الموضوع، ومن الممارسين لتعليم العربية، ومن المناهجين عنها، ومن المقاومين لازدراؤها وإهمالها، والداعين إلى تدارك الأخطار المحدقة بها قبل فوات الأوان، أصل إلى حكم متطابق مع ما وصل إليه

العربية من قوة ذاتية يدعمها سلطان قوي.

٢) دراسات في واقع اللغة:

وإن ما يؤكد صحة هذا التصور الذي نذهب إليه، أي ضعف منزلة العربية في نفوس أبنائنا، قيام نفر من الباحثين بدراسات نظرية وميدانية لمعرفة حقيقة الحياة اللغوية، والنتائج التي وصلت إليها جهود العاملين في حقول تعليم اللغة العربية، وما يصدر عنها من سلوك يبصرنا بالمستقبل الذي ستكون عليه حركة الحياة اللغوية العربية. ولاختصار هذه الفكرة نورد ما قام به فريق من الباحثين، لمعرفة خلاصة ما يقوم به معلمو العربية من جهود، ومدى تأثير هذه الجهود على الحياة اللغوية المتحصلة عند التلاميذ، حيث ورد في هذه الدراسة ما نصه:

" ويُعد إقتان مهارات اللغة العربية لطلبة التعليم الأساسي والثانوي من أكبر التحديات التي تحاول الدول العربية تحقيقه باعتباره مدخلا لتجويد التعليم، ورغم الجهود التي تبذل لتحسين نوعيته، إلا أنه ما زال يعاني العديد من المشكلات، ولعل أبرزها تدني المستوى اللغوي لدى طلبة التعليم الأساسي والثانوي، وهذا ما تؤكد بصورة واضحة نتائج العديد من الدراسات والندوات في بلادنا، فضلا عن الشكوى العامة بين أوساط التربويين والباحثين والمتخصصين في مجال تعليم اللغة العربية، إضافة إلى الشكوى الصريحة من الأكاديميين والجامعيين التي تشير إلى ضعف المُدخلات ونوعية إعدادها وإمكاناتها الوافدة من التعليم العام، وفي مقدمة ذلك التدني في المستوى اللغوي". (خضير والخوالدة ومقابلة وبني

الغيورة على لغتها، وهويتها، كالصينيين واليابانيين وغيرهم، حتى إن الفرنسي لا يكاد يعرف الألمانية أو الإسبانية وهم جيران في الجغرافيا، اعتزازا بلغته واحتراما لها وتأكيذا على ارتباطها بهويته. ولا يعلم كثير من الناس أهمية العناية باللغة الأم، ومن هؤلاء الذين لا يعلمون خطورة هذه المسألة أغلبية كبيرة من الآباء والأمهات من العرب. وهذا الجهل بمسألة خطيرة من هذا النوع، بحيث ترك أثرها على تشئة الأجيال وبنائهم العقلي والحضاري، أمر محتاج إلى غير قليل من الحرص والتنبه والحل. ومما يؤسف له أن نجد من بيننا، هذه الأيام، من يزعم أن العربية الفصيحة ليست اللغة الأم للعرب، وأن الوليد لا يكتسبها منذ الصغر، ولكن لم لا نسعى إلى جعلها اللغة الأم ليتشربها وليدنا منذ أن يفتح عينيه على الدنيا، ويرخي أذنيه إلى المسموعات فيها، ولكن لغتنا الجميلة أول ما يستقر في أذنيه، وقد علمنا هذا، وحض عليه ديننا وسنة نبينا، إذ من المعلوم في السنة أن تؤذن في أن المولود اليمنى وتقيم الصلاة في يسراه، وبذلك تتحقق لهذا المولود أول دعوة إلى الحق العقدي والحق اللغوي. غير أن من يزعم هذا الزعم لا يريد للأمة وللعرب الخير، وماذا يبقى للعرب إذا تكروا للفتهم، وقلوبها ظهر المجن؟ إنهم يقتلون وجودهم ويثدنون هويتهم، وماذا يجنون إذا حولوا أبناءهم إلى متسولين لغويا بدلا من العزة والكرامة والسؤدد؟ فإذا كان هذا فإنهم لا يجنون سوى الخيبة والهوان والهزيمة والضياع، وهل من يصلح بيتا راسخ البنيان من الأتربة والغبار كمن يشيد بيتا لا يصمد للعواصف والرياح،

الأجنبية خلاصا من التخلف ولغته. فهل تبقى، بعد هذا التكر للذات والفرق في الظلام، نقطة ضوء لغوية أو فكرية تبديد هذا الظلام الدامس؟ ولست أبالغ في هذا بتاتا، فقد رأيته رأي العين، وإن كثيرا ممن لا يعلن عن هذا التوجه صراحة تنطوي نفسه على ما ذكرت بدون تصريح أو تلميح، لأنه لا يجزؤ على التعبير عن هذه الحقيقة الراسخة في نفوس الأغلبية من الآباء العرب.

إن العرب، ومنهم بالطبع الآباء المسؤولون عن تربية أولادهم، قد أصابهم العشا من وهج الحضارة الغربية المعاصرة، فانبهروا من هذا الوهج انبهارا أفقدتهم صحة التفكير، واستقامة التوجه السليم، وأغرقهم في السلبات المهلكة، ولو أدى هذا كله إلى الانحراف عن خط السير الصحيح. ولم يكن هذا الجيل المعاصر أول من تعرض لمثل هذا الانبهار عند اطلاعه على الحضارات الأخرى والاحتكاك بها، فقد وقع العباسيون تحت هذا الانبهار، ولكنهم عرفوا كيف يتعاملون معه بحكمة وروية وعلم، فكان أن أقبلوا على ترجمة العلوم الوافدة من الأمم الأخرى، فبنى المأمون معهدا، بل قل جامعة، سماها: بيت الحكمة، فأخذ المترجمون يضعون خلاصة تلك الحضارات بين أيدي القراء بلغة عربية بليغة، ولكنهم لم يفعلوا كما فعل الآن إذ لم يقبلوا على تعلم لغات تلك الأمم إلى درجة الذوبان فيها وتفضيلها على لغتهم الشريفة، فكان هذا السلوك مؤذنا بالمحافظة على الهوية اللغوية من جانب، وعلى استيعاب ما عند الآخرين من فكر وعلم. وهذا الصنيع نفسه الذي فعله العباسيون تقعله الأمم المعاصرة

من العابثين وغير الجادين، وهو ما نلمسه في الأجيال المعاصرة، وعدم وضوح الهدف في هذا البيت. ونحن عندما نصف أو نصدر حكما عاما إنما نقصد بذلك الأغلبية من البيوت، ولا يعني هذا عدم وجود أناس يشذون عن هذا الوصف، فقد نجد أسرا تعطي نماذج ممتازة، والهدف لديها، من وجود هذه الأسرة، واضح ومستهدف، ولكن حجم هؤلاء قليل إن لم يكن نادرا.

ولا شك في أن المنظومة الأخلاقية والقيمية والعلمية التي تطمح أي أسرة عربية إلى تحقيقها في أفرادها محتاجة إلى لغة تنظم عناصرها في عقد جميل يزين جيد كل فرد من أفراد هذه الأسرة، وهل هناك عقد يستطيع نظم هذه القيم على النحو الذي نصبو إليه في الأسرة العربية غير اللغة العربية؟ وإذا كان كلامنا غير صحيح فلماذا تبقى اللغة العربية الجميلة بعيدة عن الألسن العربية لتفتك بها العامية من جهة، والرغبة الجامحة في حب اللغة الأجنبية من جهة أخرى، أما العامية فهي اللغة المسيطرة على جو البيت العربي، ونحن نلمس خطرنا على التتمية اللغوية للأبناء الذين يتنفسون جو العامية المفرطة في التخلخل، وفي بعدها عن الجمال، وعدم قدرتها على بناء الفرد الممتاز للمجتمع القادم في حياة الأمة، وأما اللغة الأجنبية فهي ما يحرص البيت العربي على إكسابها لأبنائه اعتقادا منه بأن العرب متخلفون، واقتصار الأولاد على لغة المتخلف ضرب من التخلف، ولذلك فإن بعض البيوت يغرق في مخاطبة أبنائه باللغة الأجنبية في داخل البيت وخارجه، لأنه يرى في تعلم هذه اللغة

الأمّ بما يجعل الفرد أحادي اللغة ومعزولاً عن ثقافته الأصليّة. ونشير هنا إلى أننا نجد في الغرب الكثير من القوميات التي تعتزّ بحضارتها، وقد عملت جاهدة على المحافظة على هويّتها اللغويّة والثقافيّة، من دون أن يؤثّر ذلك سلباً في اندماجها ونشاطها في المجتمع المضيف."

أما عن مسؤوليّة المؤسسات التعليميّة التي تُطالب، حسب هذه الدراسات، باحترام التعدديّة اللغويّة والثقافيّة والعمل على تكريسها ونشر التوعية حولها فتقول الباحثة: "فاللغة لا تنفصل عن الثقافة، واحترام اللغة التي ينتمي إليها الفرد يرتبط باحترام ثقافته والاعتراف بها؛ ذلك لأنّ اللغة تعبر عن حضارة أمة، وليست مجرد وسيلة تقنيّة يستخدمها الشخص للخطاب أو للتعبير عن مخزونه الفكريّ. ويشير بعض الباحثين إلى أنّ انعدام احترام ثقافة الطالب ولغته في المدرسة يؤثّر سلباً في تحصيله الدراسيّ وفي تعلّمه اللغة الثانية؛ فشعور الطالب بتمهيش لغته وثقافته وهويّته يمنع من الاندماج في مجتمع المدرسة بدلاً من تقبّل الثقافات الأخرى. ومن هنا، ظهرت برامج تعليميّة، رسميّة وخاصّة، تنبئ فكرة إدراج تدريس اللغات الأمّ ضمن المناهج التعليميّة في المدارس التي تدرّس بلغة الدولة المضيفة. وعلى سبيل المثال، ظهر في بريطانيا في أوائل ثمانينيّات القرن الماضي برنامجٌ يعنى بالتوعية بالتعدديّة اللغويّة، وما لبث أن انتشر في دولٍ أوروبيّة أخرى كسويسرا، وانتشر حديثاً في مقاطعتين في كندا. ويهدف البرنامج إلى حتّ المدرسين على أخذ لغة الطالب وثقافته الأمّ في الاعتبار داخل الصفّ الدراسيّ الواحد؛

تربويّة تؤكّد أهميّة احترام اللغات والثقافات الأمّ بدلاً من تمهيشها، تسهياً لعملية الاندماج الاجتماعيّ وتعلّم اللغة الثانية لدى فئة من المهاجرين. وتركز هذه الدراسات على أنّ تعلّم اللغة الثانية داخل المدارس في المجتمعات المضيفة يجب أن يستند إلى عاملين: معرفة اللغة الأمّ، واحترام المجتمع المضيف لهذه اللغة (وللثقافة التي ترتبط بها)."

كما تزودنا هذه الباحثة بأراء بعض العلماء الغربيين الذين يرون أن المحافظة على اللغة الأمّ للطالب المغترب مهمة جدا لبناء شخصيته، ولتعلّم أي لغة ثانية يريد تعلمها فتقول:

"تعتبر فرونسواز أرماند، وهي متخصصة في آليات تدريس اللغة الثانية في جامعة مونتريال، أنّ اللغة الأمّ أداة رئيسة يستخدمها الطالب لتعلّم اللغة الثانية عن طريق استخدام الاستراتيجيات اللغويّة ذاتها، وعن طريق الاستفادة من المهارات المكتسبة في لغته لتطبيقها في تعلّم اللغة الثانية. وفي الإطار ذاته، يشرح جيمس كومينز، وهو متخصص في اللغويّات، مفهوم ما يسمّيه "إتقان الأساسيات المشتركة" الذي يساعد على نقل المعارف والمهارات المكتسبة من اللغة الأمّ إلى اللغات الثانية، ويعتبر أنّ اللغة الأمّ تؤمّن الأساسيات لبناء استراتيجيات اللغة الثانية. وبالإضافة إلى هذا، ركّزت بعض النظريّات على المحافظة على "التعدديّة اللغويّة الإيجابية (أو المضافة)"، أي على اكتساب اللغة الثانية إلى جانب اللغة الأمّ حفاظاً على هويّة الفرد الثقافيّة، مقابل "التعدديّة اللغويّة السلبية (أو الناقصة)".

أي إتقان اللغة الثانية على حساب اللغة

ولقد صدق من قال:

ضل من دك كيانا قائماً

ومضى يبني لهووس كيانا

(بشارة الخوري، الديوان)

إنّ التفريط في العناية باللغة الأمّ لأبنائنا ذنب لا يغتفر، وخطيئة يحمل وزرها الأيوان إلى الأبد، وسأعدّ باحثة من الباحثات المتورات تحدثنا عن اللغة الأمّ وأهميتها في بناء شخصية الطفل، فهي تقول: "في السنوات الأخيرة برزت في الغرب نظريّات تؤكّد أهميّة المحافظة على تعلّم اللغة الأمّ لأنّها شرطٌ أساسيّ لنموّ الفرد المعرفيّ واللغويّ والاجتماعيّ. وقد ربطت هذه النظريّات بين أهميّة اكتساب هذه اللغة وسهولة تعلّم اللغات الأخرى، خصوصاً ذات المصدر اللغويّ نفسه. كما شدّدت على أنّ الحفاظ على اللغة القوميّة يساعد في بناء هويّة فرديّة متماسكة تتأثّر بمنظومة القيم الأخلاقيّة والمدنيّة المنبثقة من النسيج الاجتماعيّ وتؤثّر فيها. وتصدّى بعض التربويين، وبخاصّة في الدول التي تمتاز بالتعدديّة الثقافيّة، لتمهيش اللغات الأمّ لدى المهاجرين المقيمين في تلك الدول التي تعتمد في تدريسها على لغتها فقط. وفي السياق ذاته، حدّدت اليونيسكو يوم ٢١ فبراير يوماً عالمياً للاحتفال باللغة الأمّ (ويوم ١٨ ديسمبر يوماً عالمياً للاحتفال باللغة العربيّة)، وفيه يتمّ التركيز على أهميّة اللغة الأمّ ووجوب احترام التنوّع اللغويّ والثقافيّ؛ كما شدّدت المنظمة في تقرير لها سنة ٢٠١٢ على ضرورة استخدام اللغة الأمّ في البيّئة المنزليّة والمدارس."

ثمّ تضيف الباحثة فتقول:

"ومن هنا ظهرت نظريّات ودراسات

كما يحث على إدراج أنشطة صفيّة تتمحور حول الثقافات المتعدّدة للطلبة في الصفّ ولغاتهم الأصليّة. بالإضافة إلى هذا، اعتمدت مقاطعة كيبك في كندا في نهاية السبعينيّات "برنامج تعليم اللغة الأصليّة" خصوصاً في المدارس التي تمتاز بوجود نسبة مرتفعة من المهاجرين، ويهدف إلى تدريس أنشطة للطلاب بلغاتهم الأمّ.

إذا نظرنا إلى الأهميّة التي توليها هذه السياسات والبرامج للهويّة اللغويّة والثقافيّة للفرديّ في مجتمع متعدّد الثقافات، نجد أنّنا ما زلنا، في العالم العربيّ، بعيدين كلّ البعد عن جوهر هذه السياسات وفحواها. وممّا لا شكّ فيه أنّ هذه النظريّات والبرامج لا تعني حتميّة تطبيقها في مدارس الغرب... لكنّها تعمل... على نشر وعي عامّ قد يؤدّي إلى تقدير الفرد لهويّته الذاتيّة، وإلى عدم النظر إلى لغته وثقافته نظرةً دونيّة. وفي هذا السياق يذهب كومينز إلى أنّ تجاهل لغة الفرد في المجتمعات المتعدّدة الثقافات يُعتبر نوعاً من أنواع الانصهار القسريّ داخل هذه المجتمعات، ما يُفقد هويّته الأصليّة وانتماءه إلى المجتمع المضيف".

ثم تتجه الباحثة إلى واقع اللغة العربية في الوطن العربيّ محاولة الاستضاءة بهذه النظريات التي بسطتها قبل قليل في إصلاح الواقع المروع لهذه اللغة على أيدي أبنائها في الأسرة وغير الأسرة، فنقول:

"كثيرة هي التساؤلات التي تطرح عن أسباب تدهور مكانة اللغة العربيّة محليّاً وعالمياً في الزمن الراهن. فهل هو ناتجٌ من انهيار منظومة القيم في العالم العربيّ، أم العكس؟ وما هو تأثيرُ تدهور واقع هذه اللغة على بنية الهويّة العربيّة، أو

حتى القطريّة؟ وما هي الأسباب الداخليّة التي أدت، وتؤدّي، إلى طمس مآثر اللغة وتغييب جذورها التاريخيّة والتخبّط في تعريف مفاهيم الهويّة والثقافة؟"

وللإجابة عن هذه التساؤلات التي دقت الباحثة جرس إنذارها في موضوعين خطيرين هما: السياسات التربويّة والمناهج التعليميّة تقول: "... لقد ساهمت ضحالة السياسات التربويّة العربيّة، المعلنة والضمنيّة، في محاصرة اللغة العربيّة في عقر دارها. إنّ غياب (أو تزعزع) الهويّة المدنيّة للدول العربيّة، وارتهاق هذه الدول للخارج سياسياً وفكريّاً، أثراً حتماً في تلك السياسات، ولم تتمكن هذه الأخيرة من حفظ مكانة اللغة الأمّ في خضمّ المناهضة القوية للغات الأجنبية. فالخطاب التربويّ- الرسميّ على الأقلّ- ما زال بدائيّاً، ولا يمتّ بصلّة إلى احتياجات المجتمع العربيّ. والأنظمة التعليميّة في العديد من الدول العربيّة، وإنّ تبنّت ظاهراً سياسات جعل اللغة العربيّة لغةً للتدريس الأولى، ما زالت تستقدم عدداً كبيراً من المدارس الأجنبية الخاصّة، ومنها مدارسٌ تعتمد اللغات الأجنبية لغةً للتدريس الأولى في مناهجها وفي أنشطتها المساندة". ثم تتابع حديثها حول المناهج التعليميّة فتقول: "إنّ هذا يرتبط أيضاً بإشكاليّة المناهج التعليميّة التي يمكن وسّمها بطابعين: مناهج أجنبيّة مستوردة من الخارج من دون أيّ حدّ أدنى للمواءمة مع واقع المجتمع العربيّ وثقافته، ما أسهم في فرض ثقافة الآخر وزعزعة مفاهيم الانتماء إلى المجتمع العربيّ حتى بتنا ننظر إلى اللغة العربيّة نظرةً دونيّة. وإن لم تكن هذه الحال، فهي مناهج بدائيّة غير منقّحة مرتبطة بطرق تدريس

تلقينيّة، وبفلسفة تربويّة رجعيّة لا ترقى إلى مستوى التطور الحضاريّ الذي عرفته المجتمعات الحديثة. وممّا لا شكّ فيه أنّ هذه المناهج التقليديّة قضت على الفكر النقديّ والتحليليّ لدى الطالب الذي تحوّل إلى مجرد متلقٍ لا دور فاعلاً له في عملية تطوير البنية الفكرية للمجتمع. وفي كلتا الحالتين، بتنا أمام أجيال من الطلبة لا يأبهون أو لا يمكنهم أن يتصدّوا للاستعمار الثقافيّ واللغويّ الذي طيّح معظم مدارسنا في كثير من الدول العربية وساهم في صنع ما يسمى "ثقافة الهزيمة". وأخيراً، فإذا كانت النظريّات والدراسات الغربيّة أنسها ترى أنّ المحافظة على اللغة الأمّ مقدّمة للتطور المعرفيّ والثقافيّ، فلا بدّ لنا من وقفة نقديّة أمام الواقع العربيّ. إنّ التمسك بلغة الضاد لا يأتي من حسّ شوفيّنيّ، وهو ليس دعوةً إلى التوقّع داخل جدران اللغة الأمّ، بل دعوة إلى ترسيخ دعائمها واعتمادها وسيلةً للانفتاح على بقية الثقافات والحضارات من موقع تناقسيّ متين، فنتمكّن عندئذ من الاندماج بدلاً من الانصهار الحتميّ أو القسريّ في حضارة العالم الجديد". (رلى قبيسي، أهمية اللغة الأم وواقع اللغة العربية، الآداب، بيروت، ٢٠١٥)

ولقد بسطت ما ذكرته الباحثة، في هذا البحث، حتى يعرف الآباء والأمهات، في عالمنا العربيّ، حجم التصغير الذي يمارسونه في حق أبنائهم عندما لا يُعنون بلغتهم الأمّ، وهي، هنا، لغتهم العربيّة. إن العناية باللغة العربية لا تنزل من السماء، لأن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، ولكنها عقيدة وعمل، أما العقيدة فلا مناص من أن تقوم على الثقة بهذه اللغة والاعتزاز

لوجدت ما يُفزع، فمعلم اللغة العربية الذي هو النبع الذي يشرب منه التلاميذ ماء العربية الصافي، يخاطب تلاميذه بالعامية، وبلهجة من لهجاتها البعيدة عن الجمال اللغوي والدقة التعبيرية المتوخاة في الاكتساب اللغوي، إنه يحض تلاميذه، من جهة، على تذوق النص الأدبي الذي يشرحه لهم، وقد يكون نصاً قرآنياً أو شعرياً بليغاً، ومن جهة أخرى ينهال على مسامعهم بلهجته العامية، فيضع طلبته في تناقض محرج، فهل يصغي الطلبة إلى لهجة أستاذهم أم يصغون إلى النصوص المنتقاة ليتذوقوها ويسرب بعض هذه النصوص إلى ألسنتهم لتوظفها في الخطاب اللغوي؟ بالله عليك، أيها القارئ الكريم، هل رأيت نمطاً تربوياً متناقضاً كهذا النمط في الاكتساب اللغوي؟ فإذا كان ذلك كذلك فمن أين يأتي الاعتناء باللغة العربية الذي ندعو إليه، وتدعو إليه الباحثة التي اهتمتنا بعضاً من تحليلها القيور على العربية والعرب؟١٩١

وعندما يحمل هذا التلميذ نفسه إلى معهد أعلى من المدرسة، ككلية المجتمع أو الجامعة، فلن يجد حالاً أفضل مما شاهد وسمع في مدرسته، سيجد مجتمعاً جديداً تختلف عناصره، إلى حد ما، عما كان قد ألف في المدرسة، من حيث العمر والجنس، أي سيجد فيه الشباب والشابات، ولكنه لن يجد جديداً في المسألة اللغوية لأن هذه العناصر الجديدة للمجتمع الجامعي إنما قدمت من تلك البيئات التعليمية التي تحدثنا عنها قبل قليل. فكل عنصر من هذه العناصر سيجعل ما ألفه لغوياً في مدرسته، أي سيأتي وهو يحمل معه لهجته التي اعتاد عليها، ولم يُعَ أحد بتهديبها

حياتنا لا يؤهيه بها، وليست من أولويات الناس في الحياة، وهذا تصور يجب أن يفكر فيه ملياً، وأن توجد الحلول المناسبة له، لأن ترك المسألة، على هذا النحو الذي نحياه الآن، لن يساعد على المساهمة في تحقيق ما نصبو إليه من نهضة عامة تبعد عن العرب ومجتمعاتهم الانحطاط والدونية والركض وراء الاستهلاك والمتعة لا غير.

٤) المحضن التعليمي:

لا يختلف حال المعهد في بلادنا، بالنسبة للموضوع الذي يشغلنا في هذه الدراسة، وهو موضوع اللغة العربية ومدى كونها أولوية في الحياة العربية، عن الحال التي وقفنا عندها قبل قليل، وأعني البيت العربي. فالمعهد يستمد عنصره البشري من البيت العربي، فهذا العنصر الذي يتربى في بيت لا يُعنى بالمسألة اللغوية سيكون فاقداً الاهتمام المناسب بهذا الموضوع.

ولو قدر لك أن تكون معنياً بالمسألة اللغوية العربية، ثم حملت قدمك إلى معهد من المعاهد الأساسية أو أعلى منها، لأدرت أن هذا المجتمع الدراسي الذي سيدير دفة الحياة في مجتمعه، في المستقبل، ليس لديه أي عناية بمسألة اللغة العربية، فكل يغني على ليلاه، فالقروي يرخي العنان لهجته كيفما يريد، وكذلك ابن المدينة وابن البادية، ولوجدت أن هذا ليس مقتصرًا على التلاميذ فحسب، ولكنه ينسحب على المعلمين الذين هم أحد أهم مصادر الاكتساب اللغوي للتلاميذ. ولو تعمقنا قليلاً لندخل إلى حصة من الحصص، ولتكن حصة اللغة العربية،

بها، وأما العمل فلا مناص من أن يقوم على غرس هذه الثقة باللغة الأم والاعتزاز بها في نفوس النشء حتى يحملها ويتجدد حبه واعتزازه بلغته جيلاً وراء جيل، ولا بد للنشء من التدريب على هذه اللغة نطقاً وكتابة، وليس هناك نص يمكن أن يحفظ لناشئنا استقامة ألسنتهم ويزودهم بثروة لغوية كبيرة مثل القرآن الكريم، فالقراءة فيه، واستظهار آيات من آياته، تختم حياته بخاتم العربية والإسلام، وتصبغه بصبغة توضح انتماءه الروحي والقومي، ولا مناص من أن نعمل هذا لنحفظ أبناءنا من الرياح الهوجاء التي تملأ فضاءنا ووجودنا كله.

إن الوصف البسيط للحياة اللغوية العربية في البيت العربي لا توحى بالاقتراب من هذه القاعدة الأساسية لأي تشبث لغوي صادق، لأنها لا تحمل في طياتها إيماناً عميقاً بالأمة ومسؤوليتها الحضارية، ولكنها تقوم على التساهل والتعاطف والهزيمة النفسية، فيقود هذا كله إلى توارث النظرة السلبية نحو اللغة العربية. فالأم، بصورة عامة، لا تحرص على إرضاع وليدها اللغة الصحيحة، ولا تأبه لمستوى تحصيله العلمي فيها، ولكنها تركز على اللغة الأجنبية والعلوم والرياضيات، لأنها تتساق مع الحس المجتمعي العام الذي يحض على هذا المسار غير الصحيح. ومما يدعو إلى الحزن أنك لو رصدت جلسة أسرية عربية فإنه لا يكاد يخطر ببال المشاركين في هذه الجلسة الاحتياط والحذر في الجانب اللغوي، لأن من بين المشاركين فيها صغاراً يكتسبون ما يسمعون ممن يكبرهم سناً، فيستقر ما يسمعون في نفوسهم وعقولهم استقراً لا يمحو طوال العمر. وهذا يوحي بأن المسألة اللغوية في

الصف في ما وقع فيه معلم المدرسة الذي لا يُعنى بالعربية، ولا يعكس نموذج القدوة اللغوية المطلوبة، ويعرض على سامعه تناقضا أدائيا لا يُعنى بتاتا على التنمية اللغوية الصحيحة. فالطالب في هذه الحال يكون كاللدوري الذي أراد أن يقلد مشية الطاووس فلم يتقن ما قلده ثم نسي مشيته، فهو، أي الطالب، يتيه بين نمطين لغويين: أ يقلد النصوص التي يعرضها عليه المعلم من قرآن وحديث وشعر ونثر أم يقلد لهجة أستاذه؟ أيسير في سبيل الازدواجية البغيضة في درس العلم أم يختلط له أسلوبا آخر يتسق مع هذه اللغة الجميلة الصافية المتقنة والقوية؟

ومن المؤسف أن الأغلبية من الطلبة تتيه فلا تحوّل الفصيحة نطقا أو كتابة، لأن أداء المدرس سيقود حتما إلى هذا، ولا تستقر العربية في قلوبها هيبة وإجلالا واحتراما، ولا تسلم العربية منهم شتما وذما وقدحا ولعنا، وبخاصة إذا لم ينجح في هذه المادة. وقد نجد من بين هذا الواقع المرير أناسا، بل قل أفرادا، يحبون العربية ويتمنون أن يتحدثوها باستمرار، ويحاولون ترسم نطقها وقواعدها ما استطاعوا إلى هذا سبيلا، ولكن هذا النفر قليل وكأنه ملح الطعام.

هذه هي مأساة العربية في معاهدنا العربية، فأى بناء لغوي نرتجيه بعد هذا الذي عرضناه؟؟ ولا يعتمد البناء اللغوي للعربية عند الطلبة على معلم العربية فقط، ولعل من الأسس التي تساعد في هذا البناء اللغوي تضافر الجهود مع معلمي المواد الأخرى، فمن المهم جدا أن يُعنى بالعربية، لترسيخها عند الطلبة، مدرسو المواد الأخرى كمعلم التربية الإسلامية،

مع من لا يرغب في هذا السلوك اللغوي، أو من يطرب له ولكنه يبقى متزججا، كمن يصد سيلا عارما بكلتا يديه، فقد يصمد بعض الوقت، ولكنه موقن أن السيل سيغلبه، وهذا ما يتحقق هذه الأيام وأسفاه!!!!

ولعل الجديد الذي سيراه هذا الواقد الجديد في الجامعة، على مستوى المسألة اللغوية، إما انتماؤه إلى قسم اللغة العربية، ليتخصص فيها، أو احتكاكه بدرس من دروسها المفروضة عليه في برنامج الدرسي، وهو ينتمي إلى تخصص آخر من كليات العلوم أو الآداب أو الطب أو الهندسة أو أي تخصص آخر في الجامعة. وفي هذا الوضع الجديد الذي يحتك فيه الدارس مع اللغة العربية سيجد أمامه صنفين من أساتذة اللغة العربية: صنفا يُعنى بالعربية ويُجد انتماءه إلى تخصصه، فهو، إذا استمعت إليه في الدرس، أو في الحياة يعرض على مسامحك نمودجا للمتخصص في العربية فتسمع منه اللغة الفصيحة، ويُعنى بتدقيق كتابتك التي تمتحن فيها، وإذا كنت جادا في أن تبني نفسك، في هذا المجال، ستحس بأنك تستفيد وتحس بأن هذا الأستاذ هو قدوتك في ما تطمح إليه، ومما يؤسف له أن هذا الصنف نادر الوجود وقليل ما هو. وسيجد صنفا آخر لا يُعنى بشيء من هذا الذي وصفناه، فهو يشرح الدرس بالعامية، ويُخاطبك بها كذلك، ولا يدقق أبدا في ما تقدمه إليه من امتحانات أو نشاطات، إنه إذا تكرر أو تجسّد للتمط الذي اعتاد عليه هذا الواقد الجديد إلى الجامعة في مدرسته التي وصفنا حالها اللغوية قبل قليل. ومن البدهي أن يقع هذا

للتقرب من الفصيحة، ولذلك فإن خطابه اللغوي سيستمر على ما كان عليه في ماضيه القريب. وما دام القانون المجتمعي الذي تربي عليه أن لهجته نمط حياتي لا يستطيع تغييره، ولا يستطيع أن يقلد غيره من اللهجات الأخرى، وإذا حصل هذا فإن عمله يُدخله في دائرة العيب، ويعترض للسخرية من أهله وأهل بلده، فإن المتوقع من الأغلبية العظمى من عناصر هذا المجتمع الجامعي الجديد أن تحافظ بل تصر على ما ألفته سابقا، وإن تربية كهذه تجعل اكتساب الفصحى، والإقبال عليها، أمرا غير ممكن، لأنه إن عبر بها أمام الآخرين سيسخر منه الناس لاستخدامه الفصحى، وهذا ما يحصل مع طلبتنا عندما نشجعهم على اتخاذ الفصحى لسانا لهم، فنسأل: لماذا لا تستخدم الفصيحة؟ فيجيب إجابة جاهزة: إنني أخجل من التحدث بالفصحى، لأن الناس يسخرون منا. ومن تجربتي في هذا السياق أنني، عندما ذهبت إلى الجامعة الأردنية لأتخصص في العربية، أخذت أحدث الفصيحة في الدرس، وفي معاملاتي مع زملائي في الجامعة، وعندما زارني يوما ما أحد زملائي في المدرسة التي كنا فيها زملاء على مقاعد الدراسة الثانوية، رحبت به بالفصيحة، وطوال مدة إقامته معي لم أخاطبه إلا بالفصيحة، فكنت أرى على ملامح وجهه الاستعجاب والاستغراب، وكأنه يقول: أهذا هو الفتى الذي أعرفه على مقاعد الدراسة الثانوية وفي حارات البلد؟؟ وعندما أصبحت مدرسا، من سدة هذه اللغة، درجت على هذا النهج الذي اختططته في شبابي، أي المخاطبة بالفصحى، وإنني، لطول المعاناة والصراع

الأطباء فلا يتخاطبون إلا باللغات الأجنبية في نقاشهم للمسائل الطبية، أو توضيح أحوال المرضى، ولا يدونون ملاحظاتهم إلا باللغات الأجنبية كذلك، وعلى هذا النهج يسير الممرضون والمرضات، وكأنهم يؤكدون حقيقة كبيرة يقرون بها ويمارسونها وهي أن العربية منسية تماما في عالمهم، وأن علم الطب والتمريض ليس لنا فيه إلا الاكتساب والتقليد، وما علينا إلا أن نتروسم خطى من تعلمنا منهم هذا المجال. ومما يؤسف له ويدعو إلى الأسى والحسرة أن جامعاتنا العربية لا تعلم العلوم، ومنها الطب، إلا باللغة الأجنبية، يومها تساءلت في نفسي قائلاً: كيف يمكن للعربية أن تحيا في مجتمعات قائمة على التغريب اللغوي الزائد عن الحد؟^{١٩١} والقارئ الكريم في غنى عن التذكير بالوصفات الطبية التي يكتبها الأطباء للمرضى الذين يترددون على عياداتهم إذ لا يكون ذلك إلا باللغة الأجنبية، وهذا ذائع معروف، فمن الذي يجبرنا على هذا غير الهزيمة النفسية والخور الذي يملأ نفوسنا وقلوبنا؟^{١٩٢}

وقس على هذا مختلف المؤسسات الموجودة في المجتمع العربي، فمن الصعب أن تجد مؤسسة تعنى باللغة العربية عناية غيرة واحتراف، وعليه فإن المعنى باللغة العربية يجد المناخ العام لأرض العرب ملوثاً بالعامية من جانب، وبما تسرب إلى ألسنتنا من ألفاظ غير عربية من جانب آخر، وعندئذ تشعر كأنك في بلاد لا تعنيها هذه اللغة من قريب أو بعيد.

٦) هل هناك حلول شافية ؟

عندما يُجَدِّدُكَ شخص عن موضوع

في هذه اللافتات صباح مساءً. فالمصانع والحوانيت التي هي أهم بيئة للاحتكاك اللغوي، ومنهما تسرب الألفاظ اللغوية إلى البيت ومختلف مجالات الحياة، وكان من أثرهما دخول أندونيسيا وماليزيا في الإسلام على أيدي التجار المسلمين الذين وصلوا إلى تلك البلاد البعيدة عن العرب وأقطارهم، فلن أتطرق إليهما لأن البعد اللغوي فيهما منسيٌّ تماماً، ولأن الألفاظ المتداولة في هاتين البيئتين تعتمد كثيراً على ما يجلبه المستوردون من الأقطار الأجنبية، فالتصنيع في بلادنا مصاب بالتقليد الأعمى في الشكل واللغة، ولأن الصنف المستورد يحمل اسمه معه، ولذلك تمج حياتنا بالألفاظ والمسميات الأجنبية إلى حد يخرجك عن المعقول، فترى كلمة أجنبية تربعت على سطح اللافتة بأحرف عربية، كأن ترى كلمة (فرش) أي: fresh وكلمة (الوايت ليدي) أي: The White Lady، وهكذا. وإن في هذا لعبرة لمن يعتبر، فإذا كانت الصناعات التي نستوردها تحمل أسماءها الأجنبية، فإن هذا أكبر دليل على واجب المصنعين من العرب نحو لغتهم، لأنهم أفضل من يخرجنا من دوامة الألفاظ الأجنبية، بتسابقهم في إنتاج الصناعات التي تحمل أسماء عربية، حتى يطفى هذا الاسم العربي على غيره من الأسماء الأجنبية، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

أما المشايخ فحدث عن لغتها ولا حرج. لقد قادتي الظروف يوماً للمبيت في مشفى للعلاج، فحرصت أن أرقب لغة الأطباء وأحاديثهم مع بعضهم بعضاً، وكذلك لغة الممرضين والمرضات، فسمعت ورأيت أموراً تدعو إلى الحزن والعجب. أما

والتاريخ، والرياضيات، والجغرافيا، وغيرهم، فإذا حصل هذا فعلاً وجدت التلميذ يتفلسف مناخاً لغوياً صحيحاً، وعندئذ من المؤكد أن يكتسب اللغة اكتساباً طبيعياً، لأن اكتساب اللغة رياضة لا ينالها طالبها إلا بالدربة والتكرار، وهو تماماً كالمغترب الذي يفرض عليه تعلم اللغة الأجنبية بصورة طبيعية، لأنه مجبر على التواصل مع من حوله من الناس، في بيع أو شراء أو غير ذلك من مجالات التواصل الإنساني، فما أن يمضي عليه شهر على الأكثر حتى تجده يتواصل مع الآخرين بلسانهم.

وهذه هي حال الطلبة الذين يدرسون في المعهد العربي في الوطن العربي، أما من يغترب من طلبتنا فله قصة أخرى مؤلمة تقوده إلى الانسلاخ عن لغته، واكتساب اللغة الأجنبية التي أخذ علومه بها، فالعربية في رأيه لغة متخلفة لا تعنيه بحال من الأحوال، إلا أن يتقدمهم الله برحمة منه ولطف في المحافظة على لغتهم ما استطاعوا.

٥) المحضن المؤسسي:

أما المؤسسات المجتمعية من مصانع ومشايف وحوانيت ومصارف وغيرها فلا تختلف، في الموضوع اللغوي، عما يجري في البيت والمعهد اللذين تحدثنا عنهما قبل قليل. وإن نظرة سريعة إلى ما تقع عليه عيننا من لافتات تملأ الشوارع ترى إهمالاً كبيراً في لغة هذه اللافتات بحيث تفلح بالأخطاء اللغوية والإملائية التي لا يمكن توقعها من شعب يحترم لغته، أو يجبها، أو يغار عليها، أو يعرف خطر هذا الإهمال على لغة أبنائه الذين يُحَدِّقُونَ

شرائع المجتمع الأخرى، والمسألة اللغوية مسألة اجتماعية تتأثر بكل نشاط اجتماعي يظهر في المجتمع، ولكن المسؤولية تقع على عاتق كل فرد منا لا يربط وجوده في هذه الحياة بحضارة قوية كالحضارة العربية التي من مظاهر قوتها لغتها الخالدة التي ارتبطت بنص خالد هو كلام رب الناس جميعا. ولم تقتصر مظاهر القوة في هذه الحضارة على البعد اللغوي بل أعطت بعدا إنسانيا مذهلا في مجالات النشاط الإنساني كافة، من فكر وفن وطب وغذاء وغيره من ألوان النشاط الإنساني الإيجابي، ولعلها كانت من أغنى التجارب البشرية قاطبة في خدمة الإنسانية. وكل فرد لا يسعى سعي الجاد للحفاظ على موقع هذه الحضارة بين الأمم من الناحية اللغوية وغير اللغوية فهو غاش لأمتة متهاون في إحيائها مفرط في خدمتها ورفع شأنها بين الأمم.

وبناء على هذا التصور الذي يهدف إلى إيجاد مناخ لغوي مستقيم يحقق اكتساب اللغة لأبنائها، والمحافظة عليها، فإن شرائع المجتمع كافة مسؤولة عن هذا الأمر مسؤولية كاملة. صحيح أن حجم المسؤولية يتفاوت من موقع إلى آخر، ولكننا جميعا مسؤولون عن بناء شخصية اللغة في نفوس أبنائنا، ومختلف جوانب حياتنا، بناء لا يتزعزع. ولو شئنا التدرج في هذه المسؤولية لقلنا: إن المسؤولية الكبرى تقع على عاتق الأم أو من يقوم مقامها من المربين والمربيات، ثم تأتي مسؤولية الأب، ثم المعلم، ثم كل من يتواصل معه المتعلم في علاقاته الواسعة في الحياة، كالتاجر والطبيب والسائق والجار والتلفاز، وغير ذلك من الوسائل التي تترك أثرها على

الحياة القوية على أكمل وجه. إن الحل الذي لا مفر من ولوج أبوابه، بقوة وبسرعة، هو أن نعود إلى أنفسنا وصوابنا لنعطي لغتنا حقه في العناية والاحترام، ثم نعلن الحرب الشعواء على الهزيمة النفسية التي مُتت بها أجيالنا المعاصرة، فالشعوب الحية إنما تقدمت، وارتقت السلم المدني والحضاري، بالإرادة القوية، واحترامها لذاتها، وإيمانها بقدراتها الموهوبة لها. ونحن، في أيامنا هذه، ننتمي إلى أمة نفخر بها، وبلنجازاتها الكبيرة بين الأمم، فمِمَّا اختار الله الرسول محمدا، صلى الله عليه وسلم، خاتم النبيين، ثم أنزل الله عليه كتابا مقدسا هو خير الكتب، فيه آيات بينات، بلسان عربي مبين، لا يبلى ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. هدى للناس جميعا إلى أن تقوم الساعة، فكيف نتية؟! ومن أين يأتينا الضعف والهوان والكسل؟! نحن أمة لم نعتد على القعود والركون إلى الآخرين، بل نعطي ونقدم لهم الخير كله!!! فلماذا نتقاعس عن نصره لغتنا التي هي رمز هويتنا ووجودنا؟ ولماذا لا نبتهج بها وننصرها ونفخر بها ونتخذها نبراسا وممارسة حية وسلوكا مشرقا للمستقبل الواعد بإذن الله؟!؟

٧) من المسؤول؟

من الصعب أن نحمل المسؤولية، في هذه المسألة اللغوية العربية المعقدة، لفرد من الأفراد، أو لجيل من الأجيال، أو لشريحة مجتمعية من شرائع المجتمع، وقد كثرت معادلات اللوم، في هذه المسألة، للمعلم حيناً أو للوالدين حيناً آخر، غير أن المعلم والوالدين لا يعيشان في عزلة عن

اللغة ومأساتها على أيدي أبنائها سرعان ما يواجه بهذا السؤال: ما الحل الذي تطرحه لمسألتك اللغوية التي صدعت بها رؤوسنا؟ وكأن من يسأل هذا السؤال يتوقع مني أن أعطيه حلا سحريا في ظاهرة اجتماعية راسخة القواعد والبنيان منذ قرون طويلة، ويعتريها ما يعتري المجتمعات العربية من خضوع لنواميس كونية قاهرة. إن اللغة لا تختلف عن الإنسان والمجتمع الإنساني، فالإنسان يولد، ثم يشب، ثم يصح ويمرض، ثم يضعف ويضمحل، وكذلك المجتمع الإنساني الذي يخضع لهذه النواميس التي لا مفر من الخضوع لها والتكيف مع تغيراتها. ولتقس هذا على الإنسان نفسه: إذا كان الإنسان يعلم علم اليقين أنه ميت فهل يملك أن يستسلم لليأس والكسل؟ وإذا مرض فهل يملك أن يتقاعس عن العلاج؟ وهكذا الأمر في قصة اللغة، فإنها لا تختلف عن هذه الأمثلة التي نضربها لحياة الفرد والظواهر الاجتماعية المرتبطة بنشاطه المتعدد المجالات والأبعاد. لا يملك أحد، في المسألة اللغوية العربية، حلا سحريا سريعا، ولكننا نستطيع أن نصنع إرادة قوية تبصرنا بطاقتنا الحضارية وإرثنا الثقافي النادر بين الأمم، فنصنع فردا مريدا فاعلا نشيطا بصيرا بما عنده من إرث حضاري، ثم يعمل بدون توقف على صناعة مجتمع قوي مرتكز في وجوده المتجدد، في السنوات والقرون والأيام، إلى هذه المرتكزات المميزة له عن غيره من الشعوب والمجتمعات. وإن شخصية قوية كهذه محتاجة إلى لغة قوية يعبر بها ويحفظ بها إرثه الحضاري ونشاطه العلمي والفني والثقافي إلى الأجيال القادمة حتى تستمر

يتدربوا على الاستقامة مع ذواتهم سواء أكان الأمر في موضوع اللغة أم كان في موضوعات أخرى. وعندئذ تزداد الهوة بينه وبين اللغة الفصيحة، حتى إذا أصبح ربا للبيت، لم يكن بمقدوره أن يكون راعيا صحيحا للغة أبناؤه، ولا لغة زملائه، أو لغة موظفيه في العمل. وتكرر هذه الدوامة القاتلة للحياة اللغوية دون أن يفتن لها أهل اللغة، فتبقى مريضة جيلا وراء جيل، إلى أن يأذن الله لهذه اللغة بفرج من عنده يعيد لها الحياة والاستقامة والنهوض. ولعل ما نراه من عناية بعض الناس بهذه اللغة الشريفة وغيرتهم عليها، سواء أكان هذا على مستوى الآباء والأمهات أم كان على مستوى المعلمين والمعلمات أم على مستوى المؤسسات، لعله يكون وقودا لصناعة البذار اللغوية الجيدة في المستقبل، وليس هذا على الله ببعيد، اللهم عجل بهذا، واجعل الفرج لصالح لغتنا وجعلها أولوية في حياتنا قدرا مقدورا آمين.

ولا ضير في أن نذكر أن بناء العربية قوية في قلوب أبنائنا وعقولهم، ومن ثم في مجتمعاتنا، محتاج إلى بناء متكامل الأبعاد من حيث السياسة والعمل والإيمان العميق بالذات الثقافية والحضارية والفكرية، ومحتاج إلى صدق التوجه إلى الله الذي أكرم العرب باصطفائه العربية لسانا لقرآنه العظيم، بهذا وحده تكون العربية لغة حضارة كما كانت في ماضيها العريق. واني لأعتقد بأنه لا يمكن إصلاح وضعنا اللغوي ما دام بنينا الحياتي مهلهلا، فاللغة القوية تمز وتقوى في المجتمع القوي والتوجه القوي. هكذا فعل أجدادنا فبنوا صرحا حضاريا وثقافيا نادرا في تجربة الحياة الإنسانية قاطبة، فإذا أردنا أن

وقوته واستقامته، فما أن يصل المتعلم إلى مقاعد الدراسة الرسمية، أي المدرسة، فإذا بلسانه قد درج على لهجة محلية توسع الهوة بينه وبين العربية الفصيحة، وأخرى ثقافية درج عليها من وسائل الاتصال المتنوعة من تلفاز وهواتف وغير ذلك، فهذا وذاك يجعلانه يستعصي على الاستجابة لتعلم اللغة الفصيحة وثقافتها وحياتها، فيدخل في مواجهة نفسية وعملية مع هذه اللغة التي لم يألفها، ولم يطوع لسانه على ألفاظها وأصواتها وتراكيبها، ولم يساعده أحد على هذا، فيأخذ في التنفوس منها وفي كرهها، حتى إذا أجبر على التعامل معها، ومع نصوصها صنع هذا الجبر سورا مصفحا بينها وبين فؤاده، ليعلن عليها الحرب والعداوة عندما تنهأ له ظروف هذا السلوك المشين، لأنه يحمل في طياته ارتدادا حضاريا وثقافيا ودينيا لم يسبق له مثيل. ولعل في هذا تفسيراً ملموسا لما نسمعه دائما من أبنائنا الطلبة من تعبيرات حول كرههم العربية ودرسها ونحوها وصرفها، وحتى أصواتها، وبخاصة عندما نسمعهم يستحبون ترقيق الأصوات المفخمة، كالصاد والطاء ليبينوا لسامعهم أنهم رقيقون ومتمدنون، وكأنهم يريدون التنفوس والانسلاخ من جلودهم العربية التي ولدوا عليها ونشأوا في أحضانها.

وتزداد الهوة بينه وبين هذه اللغة الفصيحة في المعاهد العليا، ففي هذه المعاهد تكون دراسة مواد اللغة العربية إجبارية، والنجاح فيها متطلب أساسي، وكأنه وقع في شرك يتمنى بكل السبل والوسائل أن يتخطاه، ولذلك لا نعجب أن نرى ظاهرة الغش متفشية بين الطلبة في حلول التقييمات والامتحانات، لأنهم لم

مكتسب اللغة.

أما بعد، فإن القول الفصل في هذه المسألة هو أن مسؤولية العناية باللغة وإصلاحها مسؤولية جماعية مشتركة، لأن اللغة ظاهرة اجتماعية يشترك في استخدامها وصناعتها أفراد المجتمع جميعا، وبدون أي استثناء لأحد منهم، فالببيت وأفراد مسؤولون، وطواقم المدرسة أو الجامعة مسؤولون، والمؤسسة وموظفوها مسؤولون كذلك، والوزراء مسؤولون، ولعل أخطرهم مسؤولية هو رئيس الدولة، فهو القدوة الأولى للناس جميعا، فالمجتمع بكليته مسؤول عن القضية اللغوية، فإذا عزت اللغة عز الجميع، وإذا هانت أصاب الهوان والخيبة الجميع كذلك.

وقد يستغرب أحدنا ما ندعو إليه من تكامل في بناء المسألة اللغوية في نفوس أبنائنا حتى يكون عندهم مناخ لغوي متكامل، ولكن لم الاستغراب في هذا! ونحن نجد الأمم الأخرى تفعل ما ندعو إليه تماما، وطالبنا عندما يذهب للدراسة في بلد أجنبي يكتشف هذا التكامل اللغوي فيتقن اللغة الأجنبية في مدة وجيزة من الوقت.

٨ الخاتمة :

إن من يرصد الواقع المرير للغة العربية، في البيئات الأساسية لحياة اللغة العربية عند أهل هذه اللغة، لا يتوقع لهذه اللغة أن تصبح لها الأولوية الاعتبارية والعملية بين عشية وضحاها، فالببيت العربي يتلقى زخات قوية من غيوم الإعلام العالمية والمحلية الملبدة بكل ما يحول بين الفرد العربي ولغته، والسياسات الرسمية تقوى هذه الموجات الهادمة للسان العربي

وحضارته، فيحضن هذه اللغة ويهيئ لها أسباب الحياة والنهوض، وليس هذا على الله ببعيد. كما أن هذا لا يمنع بتاتا أن يبقى المتحمسون للغة الفصيحة وحياتها القوية على نشاطهم، وأن يستمروا في بذل كل ما يستطيعون لتحقيق هذه الغاية، ولعل الله، سبحانه، يجعل هذا الأمل يتحقق بسبب من هذه الجهود التي بذلت يوما ما في الحياة العربية، والله الموفق.

كالنبات التي تلو بغير جذور، وتبقى كذلك غير مؤهلة لإحداث التغيير المطلوب الذي يجعل العربية ذات أولوية في القلب والعقل والسلوك اللغوي والحياة العربية كلها. إزاء هذا كله، فإنني لا أتوقع أن تكون الأولوية للعربية في القلب والوجدان، وكذلك في واقع الحياة العملية في المجتمعات العربية المعاصرة، في غضون قرنين من الزمان من تدافع الأجيال والأحوال، إلا أن يكون هناك فتح من الله، سبحانه، فيقيض لهذه الأمة جيلا صادقا مع نفسه ولغته

نركب مركب العزة والقوة، في مناحي الحياة جميعا ومنها المنحى اللغوي، فلا مناص من أن نترسم خطاهم ونقتدي بهم مع مراعاة الاستفادة من أساليب كل عصر وأدواته المدنية والحضارية. إنني لأعي أن هناك عناية بالعربية في مساحات صغيرة من حياتنا، وقد يظنها بعضهم كبيرة، كما نشاهد في بعض نواحي التعليم وبعض وسائل الإعلام، غير أن هذه المساحات غير الموجهة وغير المنطلقة من واقع سياسي واجتماعي قوي، تبقى

(٩) المراجع:

- ١- ابن جنبي (-٢٩٥هـ)، الخصائص (١-٣)، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م -، الخصائص (١-٣)، تحقيق محمد النجار، دار الهدى، بيروت، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م
- ٢- بشارة الخوري، ديوان بشارة الخوري، بيروت، ١٩٦١
- ٣- رلى قبيسي، أهمية اللغة الأم وواقع اللغة العربية، الآداب، بيروت، ٢٠١٥م
- ٤- رائد خضير ومحمد الخوالدة ونصر مقابلة ومحمد بني ياسين، خصائص معلم اللغة العربية الفعال: دراسة مقارنة، المجلة الأردنية في العلوم التربوية، مجلد ٨، عدد ٢، ٢٠١٢
- ٥- الزوزني، شرح المعلقات السبع (ضبطه وعلق عليه محمد علي حمد الله)، المكتبة الأموية بدمشق، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م
- ٦- فندريس، اللغة (ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص)، مكتبة الأنجلو مصرية/القاهرة، ١٩٥٠م
- ٧- ياسر الملاح، لماذا تغزى العربية من داخل حصونها؟، كتاب المؤتمر الدولي الأول للغة العربية، بيروت، ٢٠١٢
- المقدمة في علم اللغة، دار البيروق العربي، رام الله، ٢٠١٠م